الصوفيون والتعاون

للأستاذ على مرسى نوفل

التعاون تساند وترابط فى الحياة وقد دعتنا الأديان إلى فعل كل خير وكل جميل ليسود الحب والسلام ولتخف الأحقاد ولتطمئن النفوس وأنذرت المتخلفين عن المساعدات بالوعيد والتعاون مقابلة للشقاء والمتاعب وهى قديمة فى الوجود واعتبر الإسلام الكلمة الطيبة صدقة ودعت القوانين المدنية إلى التكافل الاجتماعى لاستقرار الحياة والتعاون المادى هو أول أنواعه والنهضات الدولية فى جميع عصور التاريخ حركتها الأزمات والدعوة إلى التعاون نوع من حب الخير العام .. قدم وفد من العرب على معاوية بن أبى سفيان وفيه الأحنف بن قيس فقال الحاجب لا يتكلم أحد منكم إلا لنفسه فقال الأحنف لكل واحد حاجة من معروف أمير المؤمنين فقال له لقد تكلمت عن الشاهد وعن الغائب وزيد من هذه النادرة أن التعاون لا يكون بين الأصدقاء بل بين الجميع وهو قائم وظاهر بين جماعات النمل والنحل . . . وقال هل من أهل الرحلات إن الحيوانات والطيور لا تجتاز الصحراء الواسعة المخيفة إلا بالتعاون وقال الفيلسوف نوبيل إن أكبر قوة هدامة هى الأثرة وأكبر قوة للنظام هى التعاون والتعاون شعار الأخاء والمحبة .

والفتوة التى تدرس فى مدارسنا نوع من التعاون وقال التسترى الصوفى هى سمى العبد فى أمر غيره .

وكان صلاح الدين فى الحروب الصليبية إذا رأى فتوراً ينادى أين أهل الفتوة .. واجتمع مشايخ بغداد إلى أبى حفص وتحدثوا الفتوة فقال الجنيد هى ترك الرواية إلى الأعمال وقال أبو حفص هى الانصاف والتضحية . فقال الجنيد لإخوانه . قوموا فقد زاد أبو حفص على ذرية آدم وقد جاد كبيب بن مامه بقسطه من الماء .

وهو فى الصحراء إلى أخ له يوماً ويوماً حتى أضر به العطش وطلبوا منه متابعة السفر فعجز ومات وضرب به المثل فى الإيثار :

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال حكيم لامرية فى أن الإنسان لا يهنأ بالحياة دون الشجاعة وكل جماعة لا تتضافر آحادها على التعاون تكون محرومة من المتانة الخلقية والقوة المعنوية ولا تستطيع أن ترد عدواناً وأحن الأخلاق هى غريزة الإيثار .

وقال ابن مسكويه لما كانت الخيرات الإنسانية كثيره وكانت القوى التى تصدر عنها كثيرة كذلك ولا تستطيع طاقة الإنسان أن تقوم بجميعها وجب أن يقوم بكثير منها كثير منهم . . وقال الفارابى لا يستطيع الإنسان أن ينال الكمال إلا باجتماع هيئة متضافرة فيقدم كل واحد لغيره ما يحتاج إليه . .

وكانت الفتوة أولا تطلق على القوة ثم استعملت للسخاء والكرم واشتهر بها العرب لحياة الصحراء ثم شملت الحياة الاجتماعية وجعلوا لها شعاراً فى أيام الدولة العباسية وهو الحذاء الطويل والثوب الأبيض والقلنسوة وأمر الناصر لدين الله العباسى أن يشربوا كأسها وهو ماء فيه ملح وكان ذلك بدعوة من الأشراف وعملوا فدائيين وانتسبوا إلى الإمام على وحافظ على نظامها المماليك وأشار نابليون إليهم فى حركته على مصر ومبدؤها الدرسى عندنا يقوم على الإيمان والأمانة والتعاون نوع من الاتحاد ولا يستفيد من الشقاق إلا أهل الأغراض والأهواء ومن الطرائف أن واحداً من المشتغلين نزل قرية أهلها فى حاجة إلى المطر وتطوع باستمطار السماء إذا نقدوه بعضاً من المال فجمعوا له المال ثم طلب منهم أن يتفقوا على ساعة نزوله فقال فريق إننا لم ننته من إعداد الأرض وقال فريق قد انتهينا وقال فريق نزيده غزيراً وقال فريق نزيده قليلا فقال إذا اتفقتم نزل المطر وفر بالمال .

والإخلاص فى المشورة نوع من التعاون ويقول علماء النفس إن إهداء الأفكار من غير أجر مساعدة لها قيمتها وهذا يحرك النفس ويخلق لها المتعة وقال أمرسون إن الهدية الفكرية جزء من النفس وقال فرانكلين عندما تسعد الناس تسعد نفسك . وقال لنك الأمريكى إن السعادة لا تأتى إلا عند إنكار الذات .

وقال سليمان الحكيم لقمة عيش يابسة مع السلام والتعاون خير من بيت قد امتلأ بالذبائح مع الخصام والتباغض وقال النبي عليه الصلاة والسلام لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب الفقراء والمساكين .

ومن طرائف أهل الفتوة أن صوفيا زار صديقاً له فى نيسابور ثم خرجت جارية لتصب الماء على يديه فقال ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدى الرجال . . ولما أخذوا ذا النون إلى الخليفة لاتهامة بالزندقة رأى سقاء وعليه عمامة وفى يده كيزان من الخزف الرقيق فقال أهذا ساقى السلطان فقالوا هو ساقى العامة فشرب وأراد أن يعطيه مالا وقال أنت أسير وليس من الفتوة أن نأخذ منك شيئاً .

وهناك نوع طريف من التعاون وهو التعاون الدولى وقد دعا إليه فى القديم همبر المحامى رجاء الأمن والسلام العالمى وكان مدفعياً فى جيش فرنسا فى الحرب العالمية الأولى وحكم عليه بغرامات من أجل أفكاره وساع من أجلها فى أوروبا وقرأ كتب التاريخ فى أكسفورد وفى هارفارد ليقف على أقوال الداعين إلى السلام العالمى واشتغل محامياً فى باريس ودرس المشاكل الاجتماعية والسياسية فى أوروبا وفى أمريكا وهاجر إلى أمريكا فى الحرب العالمية الثانية ودعا الأطباء والمحامين ليدرسوا فكرته .

وبعد البحث قرروا مناصرته وتأييده وكان يرى إذاعتها لتكون رأياً عاماً بين الشعوب والجماعات وكان يخطب فى المدارس والفنادق والكنائس وناصره المحبون للسلام وقال بعضهم إنى أناصرك بلا قيد ولا شرط .

والتعاون المادى هو الظاهر فى دعوة الداعين . . إرادة الرخاء ومحاربة الأفكار الهدامة وقال سولتر الانجليزى إن الاقتصاد هو محور سلام العالم وقال أحد أعضاء مكتب العمل الدولى لأجل السلام يجتمع الساسة ورجال الاقتصاد والأعمال ويكون اجتماعهم لأجل المال والرغيف . وقال إن العالم لا يجتمع الدين فى ولا فى الثقافة ولا فى الحكومات ولكنه يجتمع فى الاقتصاد . وقال ماتزا ينى الإيطالى لا ينفع البشر إلا العقيدة الراسخة . . ومن الطوائف أن وفداً من بنى عامر استأذن النبى فى المرعى حول المدينة . فقال إنها ديار لا تضيق بمن جاءنا وإن جاءنا لا يظلم فى ديارنا وقد ألجأتكم الحاجة فنحن نأذن لكم فى المرعى ونشرككم فى المأوى — وقد أنصف أيوب خان حين قال : « إن الإسلام دين تقدمى . . » .